الكعك المستورد

كان لي أن أكون أحد أعضاء لجنة 13 التي تقوم بتحديد الأسعار الاستثنائية في مكتب القيمة في الجمارك بالنسبة للبضائع المستوردة, وحين اطلاعي على جدول أعمال اجتماع اللجنة ورد دراسة أسعار الكعك المستورد، فظننت أن هناك خطأ طباعياً, وحين ابتدأ الاجتماع وحضر أعضاء اللجنة تحدثت عن تشابه الأسماء وأحببت أن أستفسر من أحد الزملاء المستوردين عن نوعية المادة المشابه اسمها للكعك، فابتسم وقال: إن المادة المستوردة هي الكعك بعينه..

فعجبت.. أوَصل بنا الأمر أو وصلت بنا الرفاهية أن تستورد سورية كعكها وأن يستورد مستوردوها الكعك؟..

أين الكعك السوري والشامي بشكل خاص الذي كانت تشبه به وجنات حسان الصبايا الدمشقيات، الذي يرمز إلى الطيبة والحلاوة ووردية اللون واحمراره وبريقه..

أين كعك السمسم والقرفة والمدور والشرك والأصابع وكعك السكر وسواها من أنواع الكعك، وجّهت حديثي للزميل المستورد: أتدري أن الكعك الذي تستوردونه وتطلبون تسعيره جمركياً تدفع قيمته بالعملة الصعبة؟..

فهز رأسه بالمعرفة..

عادت بي الذاكرة إلى السنين العجاف التي مرت بها سورية، يوم شحت عليها السماء برزقها ووقف الشعب السوري شاداً الحزام مستسلماً لقضاء الله..

فألغى أهم مستورداته التي كان بحاجة إليها لعدم توفر العملة الصعبة..

تذكرت كيف كان يركض الناس حول السيارة الصفراء القادمة من بيروت للحصول على قالب الجبنة والمحارم الورقية وبعض المعلبات, وكيف كان يقف الناس بالصف للحصول على السمنة والزيت والسكر والشاي، تذكرت كيف وقف الأطفال مع كبارهم في شد الحزام فتمنعوا عن أكل الموز.. تذكرت الأطفال الرضع الذين حرموا من حليبهم والمرضى الذين فقدوا دواءهم لعدم توفر العملة الصعبة، تذكرت الأستاذ الدكتور محمد العمادي الذي كان يشرح لي في جلسة خاصة صعوبة تلك المرحلة, وقد كان وزير اقتصادها، كيف كانت الدولة تشتري القمح من أي باخرة تمر لتأمين الخبز بعد أن قل المخزون ووصل إلى درجة النهاية، فطلب وعلى مسؤوليته الشخصية خلط الشعير بالقمح، فقلت له حينها أثناء تلك الجلسة: من أجل ذلك كان هذا الجيل قاسياً عنيداً صعب الشكيمة،

فضحك وقال: بالعكس هيأت جيلاً يتمتع بالمناعة الصحية في معدته، والمعدة بيت الداء، ألم تسمع مريم نور وهي تتحدث عن فوائد الشعير؟.. ألم تسمع عن خبز راس بعبو؟..

أيها الزملاء المستوردون صحيح أننا في عهد الانفتاح الاقتصادي، وصحيح أن لدينا في المصارف أموال فائضة ولدينا كتلة نقدية كبيرة من العملة الصعبة، ولكن لتكن تلك الأموال لمشاريع تنموية تعود بالفائدة على الوطن.. ولتكن محفوظة لأيام قد نكون أكثر حاجة إليها..

فلنعمل على ترشيد استيراداتنا وعلى ترشيد استهلاكنا.. ورحم الله من قال احفظ قرشك الأبيض ليومك الأسود, في وقت نعمل على بناء وطن عزيز واقتصاد قوي متين.. في دولة فتية تنظر إلى المستقبل نظرة واعدة من خلال بريق عيون الأطفال الناظرة إلى المستقبل وتحمل طموح الشباب وآمالهم لغد أفضل..

بقلم نزار نسيب القباني عضو غرفة تجارة دمشق